الكتب

وحى القلم

تأليف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى

اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم

للدكتور عبد الوهاب عزام

أنا معجب بالرافعى منذ قرأت له . وأحذر أن يغطى الاعجاب على بصرى ، وتكل عين الرضا عن العيوب ، وقد اتهمت نفسى ، ولتكافئ التهمةُ الاعجاب ، ويعادل الحبّ الارتياب

الرافعى نسيج وحده ؛ تقرأ له فتشعر أنك فى اختراعه وتصويره ، وبيانه وتفكيره ، لا يذكرك بأحد ، ولا يذكرك به أحد . وحسب الكاتب أن يكون كوناً مستقلاً يستملى الضمير ، ويُبدع فى التصوير ، وكثير من الكتاب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها ، ولكنها صور مستعارة لا تفتأ تستعير مادة عملها

بين شعراء الفرس شاعر تسمّى « خلاق المعانى » ؛ والرافعىّ فى وحى القلم جدير بهذا اللقب . وما أعسر الخلْق هنا ، وما أصعب الابداع . يعمد إلى الحدث الصغير ذى المعنى المحدود فيحطم حدوده ويصله بالبشرية كلها ، أو يُشيعه فى العالم كله ، ويصوّره صوراً تلقى القارئ بجدّتها وروعتها . والكاتب الملهم يرى الخليقة أسباباً متصلة ، ومعانى متجاوبة ، وصوراً متجاذبة ، فما يبصر ذرة إلا رأى وراءها الفلك ، ولا يمسك شعاعاً إلا جذبه إلى الشمس ؛ وكأن كل شىء فى الوجود عين تطل على العالم غير المحدود . تنثال عليه الفِكَر وتتزاحم أمامه الصور ، فيكون همه أن يشق طريقه بين المعانى المتزاحمة ، ويحدّ سبيله بين الطرق المتشعّبة ، وأن يطرد المعانى التى لا يريدها عن المعانى التى يقصدها . فهو من الخصب فى نصب — نصب الكاتب المقلّد من الاحداب والاجبال

العالم أمام الرافعى كتاب مفتوح ، يدرك فيه جمال الحروف وحسن السطور ، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهى من المعانى . وما يزال يعرض المعنى الواحد فى صور رائعة حتى يدع القارىء معجباً حيران ، قد اجتمعت على القراءة خفقاتُ قلبه ، ونظرات عينه ، وأسارير وجهه . فلو أن الرافعى صور هذه الخفقات وبيّن هذه النظرات والقسمات لا ستردّ البيان الذى أفاضه على قارئه

والرافعى يغرب أحياناً ، أو يدقّ فينبهم معناه . وفى هذا ثورة بعض الأدباء عليه ، ولكن الذى آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه يؤمن أنه حين يغمض يتحيل لمعنى دقيق خفىّ لم تَرُضه الألفاظ ، ولم يذلّله الكتّاب ، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله . وكثيراً ما يخيّل إلىّ وأنا أقرأ آبدات الرافعى أنى أتبع بصرى طائراً يرتفع فى اللّوح ثم يرتفع حتى تُضمره السحب ؛ فلا تراه العين ولكنها تعرف أنه فى جوّ السماء . فان قيل إن هذا حكم الاعجاب والرضى ، قلت فانى أتهم نفسى فلا أدفع عن هذه الآوابد . ولكن وحى القلم برىء من الغموض والانبهام ، وإنما أكتب اليوم عن وحى القلم

وهذا الكاتب النابغة نزّاع إلى الجمال ، طمّاح إلى الفضيلة ، مولع بكل خلق كريم ، فلا يعالج أمراً إلا حلّق به إلى الجمال والرأفة والرحمة والاحسان والحرية والاقدام وهلم جرّا

وقلبه فياض بالايمان والطهر ، فاذا كتب فى الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع . اقرأ مقاله : « سمو الفقر فى المصلح الاجتماعى الأعظم » . إنها تملأ القارئ إعجاباً ، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملكاً محلّقاً يرى مآتم الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه ؛ ولا يوفق لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعى ، يكتب فى حقيقة علوية كالنفس المحمدية . ثم اقرأ فى مقاله : « الله أكبر » وصف المسجد ونشيد الملائكة ؛ لقد قرأت فكانت تنبعث التكبيرة من قرارة نفسى ، فأمسكها مؤثراً الاستماع إلى هذا التكبير الذى يدوى به المسجد ؛ فلما انتهى

المقال لم أملك أن رفعت صوتى بآخر كلمة منه « الله أكبر »

هذه النزعات العلوية ، والسمو الروحى يتجلى فى مقالاته : الاشراق الالهى ، فلسفة الاسلام ، حقيقة المسلم ، وحى الهجرة ، فوق الآدمية ، درس من النبوة ، شهر للثورة ، ثبات الأخلاق

الرافعى كاتب الاسلام والعربيـة ، يتناول الحديث الصغير فى تاريخ الاسلام وآثار العرب فيجعله عنوان فصـل بليغ من الحكمة والموعظة ، يسايره فيـه القارئ متعجباً : كيف ولدت الواقعة الصغيرة هـذه المعانى التى تحاول أن تكون تاريخ جيل ؟ . اقرأ « زوجة إمام » و « السمكة » . واقرأ « يا شباب العرب » و « يأيها المسلمون »

وهذا الكاتب السماوى أبرع الناس تحليقاً بالحب الطاهر ، وأعظمهم ترفعاً به ، وأبصرهم بالهاوى والمهالك التى يحلّق عنها هذا الحب العلوى الأبى . نظرة إلى السماء تصف العلاء والمضاء والطهر والسمو الروحى الذى لا يحد ، ونظرة إلى الأرض تصف السقوط الحيوانى ، والهوى الشيطانى ؛ فترى القارئ مدعواً إلى السماء ، مطروداً عن الأرض ، طائراً إلى الخير ، نافراً عن الشر

وإذا وصف صاحبنا الجمال ، بث فى العالم معانيه ، ونفض عليه ألوانه ، فكأنما خلق العالم خلقاً جديداً . يخلق من الشعاع شمساً ، ومن القطرة نهراً ، ومن الوردة حديقة ؛ ثم يفرد فلا يُدرى أهذا التفريد تفسير هـــذا الجمال ، أم هذا الجمال تصوير هذا التفريد . . ولا يدرى القارئ أهو فى ربيع باهر ، أم فى بيان ساحر ؟ . وما أشبه قلمه وهو يشـقق المنظر الشُغل عن سرائر الجمال بارعة الحاكية ، تسلط على الصفحة الجامدة السوداء فتردها كلاماً وأنغاماً وألحاناً ؛ واقرأ « عرش الورد » تر كيف جعل ابنته على عرشها مركزاً يحيط بها الجمال فلكاً دائراً

ولله مصطفى حين يتغلغل فى الجماعات ، فيحس آلامها ، ويصف أسقامها ، ويضرب عما فى ضمائر البائسين ، وعما فى رءوس المتكبرين ؛ ولا يزال بالمعنى الذى يراه الناس جماداً ، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور . ويأخذ الحادثة الصغيرة ينطقها بما وراءها ، ويكشفها عما انطوت عليه حتى يقيم بها للانسانية عرساً أو مأتماً . اقرأ « أحلام الشارع » تسمع أنات البشرية وتر عبراتها وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج وماء العيون وبار الزفرات وحر الحسرات وسواد الفاقة والذلة ؛ ثم تسمع لعنة الانسانية على لسان ما خلفت الانسانية من قوانين . والعجب أنك كلما أسال الحزن عبراتك طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها . واقرأ « عربة القطاء » تر أنه صاغ من أساريرهم حروفا للجاه تسع كل معنى ، وتتمثل الآلام التى ولدت هؤلاء ، والمصائب التى يحملها هؤلاء ، والمفاسد التى سيلدها هؤلاء . وتقرأ « لحوم البحر » فتستمع إلى الشيطان والملك ، كل ينشد أناشيده . ويستخرج الرافعى منها دعوة إلى الفضيلة ولعنة للرذيلة ، وهو قادر على تسخير الشيطان لبيانه . فقد أعطى فى البيان مُلك سليمان .

وإذا وعظ مصطفى الصادق نفذ إلى السرائر ، وصور للانسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدع له أن يختار إلا الأولى وأن يهجر إلا الثانية . وهو لا يعمـد إلى النذر يصبها على النفس صب السياط ، يألم لهـا الجسم ، وتموت القلب ، بل يعمد إلى الحياة يصورها هنا على حقائقها نافياً عنها تلبيس إبليس ، وإلى القلب ينفخ فيه العظمة ، ويبث فيه الفضيلة والطهارة والطموح إلى كل خير ، والنفور من كل شر . واقرأ له « وحى القبور »

وهذه المقاصد الجليلة والنزعات السامية تخالطها دعابة دقيقة ، وسخرية نافذة ؛ ترى الكاتب يرتفع فوق العالم ثم يسخر مما عبّد الناسَ من أباطيل وأهواء ، فاذا التماثيل التى يسجدون لها تهاويل ، وإذا الهول الذى يفزعون منه تهويل ، وإذا العظمة والكبرياء والسلطان والجاه والغنى وكل ما عدّه الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين ، أضاحيك يخلقها الجهل ، ويهدمها العقل ، ويقدسها الانسان حيواناً ، ويحطمها الانسان إنساناً -- وأعوذ بالله من الرافعى إذا انطلق ساخراً يرسل بيانه طعنات درا كا وهو يضحك ضحك البرق فى السحاب الراعد ، أو لمع السيف فى يد الضارب .

* * *

وبعـد ، فهذا وصف الروض فى كلمات لو كانت أزهاراً ما مثلته ، ونعت البحر فى سطور لو كانت أمواجاً ما صوّرته . فأما الروض فى بهجة جماله ، والبحر فى روعة جلاله ، فهما ما خطه الرافعى . فان شئت فقل جنات فى صفحات ، وعباب فى كتاب ؛ وإن شئت فقل إنه العالم فى سطور قد انتظم ، ووحى إلهى سماه الرافعى « وحى القلم »

« ذلك الفضل من الله »

عبد الوهاب عزام